

الدكتور عبد الله ركيبي وتجربته في نقد الحكاية الشعبية الجزائرية "حكاية العشاق في الحب والاشتياق لمحمد بن إبراهيم مصطفى" نموذجاً قراءة في مدارات الممارسة والتنظير

ملخص

يعد الدكتور عبد الله ركيبي من رواد النقد الأدبي في الجزائر الذين لهم إسهاماً نقدياً متميزاً في نقد الحكاية الشعبية الجزائرية والتعريف بها، حيث درس باهتمام بالغ تطور الفنون النثرية الشعبية، وقدم رؤية المدرسة الوطنية الجزائرية بعيداً عن أطروحات أدب ما بعد الكولونيالية، في مسار إلحاق الجزائر بواقعها بعد الاستقلال، والكشف عن هويتها.

وتعد دراسته لحكاية العشاق في الحب والاشتياق لمحمد بن إبراهيم مصطفى من أوائل الأبحاث التي رسخت تقاليد نقد الثقافة الشعبية الجزائرية في البحوث الأكاديمية الجامعية، وهي من الناحية المنهجية قد لا تكشف عن وجود نظرية نقدية مستقلة بالمفهوم النقدي المعاصر في الثقافات الشعبية إلا أنها لا غنى عنها في استقراء السيرورة وإرهاصاتها في هذا الحقل المعرفي المهم، ولكنها تكشف عما أنجز في الميدان من الناحية التنظيرية أو الممارسة التطبيقية. وهذا ما سنحاول البحث في مداراته.

د. رابح طبجون

قسم الآداب واللغة العربية
المدرسة العليا للأساتذة
قسنطينة
الجزائر

Abstract

Abdullah Rkibi, a pioneer of literary criticism in Algeria, has contributed with distinctive promotion and criticism of the Algerian folk tale. He interestingly studied the development of the popular oral and fiction arts, and presented a scope of the Algerian National School, far from the post-colonial literature, on a path appended to Algerian reality and identity. His pioneer study of the 'tale of lovers in love' and 'longing for the Mohammed bin Ibrahim Mustafa' established a tradition of popular culture criticism among the

مقدمة

أولاً: أهمية القصص الشعبي:

لا يخلو أدب الأمم والشعوب قديمها وحديثها من قصص شعبي مثل ذاكرتها التاريخية وجمع تصوراتها ولخص تطلعاتها فكانت القصة الشعبية المتنافس التعبيري عن هواجس مكنونة تسعى إلى تحرير الإنسان وتخليصه من الألم والحصار التي طالما خنقت فيه صوت الإرادة الخيرة وجمّدت في فمه الصدع بكلمة الحق، فأخذ هذا الإنسان عبر القصة الشعبية يسرق من الأزمنة الرديئة لحظات للحلم يكسر بها أجنحة الصمت التي حرمته إنسانيته لفترات طويلة، فكان الأمل واسعاً في الخروج من

دائرة الكبت السياسي والاجتماعي ، يلعب الخيال الشعبي دورا كبيرا في صياغتها، وفي تأطير بعض الأحداث التاريخية والشخصيات، بالمبالغة والغرائبية، مع وقفها عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية العادية.

وشكّل حضور القصة في الأدب الشعبي ظاهرة تتطلب الوقوف عندها بتأن وتأمل كبيرين لأن ظهورها غالبا ما صاحب أحداثا تاريخية مهمة" خاصة الممارسات الثقافية التي عاشتها

وتعيشه الجماعة الجزائرية منذ العصور

القديمة... وبعض محطاتها التاريخية وتجلياتها المختلفة"(1).

وأما ما يطرأ على التاريخ من تغيير - قد يتعارض أحيانا مع منطق الوقائع كما حدثت أو كما يمكن لها أن تحدث- كان تعبيرا عن الإمعان في تحقيق الذات الجماعية ولو على مستوى الحلم والتطلع، وما جنوح القصة الشعبية إلى المبالغة والمغالاة سواء في مجال تصوير الأحداث أو تضخيم واقع الشخصيات بما يتلاءم مع الحقيقة حتى النسبية منها إلا صورة من أشكال التفكير الأسطوري والخرافي الذي يستبدل فيه الفعل بالوهم بغية العمل على تماسك بُنى المجتمع النفسية والعقلية والحفاظ عليها من التحلل أمام الدخيل. وعلى حد تعبير الأخوان غريم أن الحكايات الشعبية حطام أساطير، أو بقاياها وأشلائها المتأخرة، وعليه فإن القصة الشعبية شديدة الارتباط بكيان الأمة وهي تتبع من الوعي واللاشعور الجمعي، و"تتخذ من الواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه أفراد الجماعة التي تتداولها وتعيد إنتاجها"(2).

ثانيا: مدخل مفاهيمي لدراسة القصة الشعبية :

القصة الشعبية أفق متسع لكل ما أنجزته الفاعلية الشعبية وبقي حيا في ذاكرتها، وانطلاقا من هذا يعمم الناقد عبد الله ركيبي مفهوم القصة الشعبية على كل "الأشكال التي استخدمت الأسلوب القصصي من سرد وحوار وحديث عن الشخصية والتركيز عليها أو على الحادثة، سواء كانت مجهولة المؤلف أو معروفة المؤلف وسواء ارتبطت هذه القصة بالتاريخ أو بالواقع أو بالأسطورة أو بالدين أو بغيره، ممّا يدخل عموما في مفهوم مصطلح الحكاية"(3).

ومدار هذا النوع السردي الشعبي هو مدار واقعي اجتماعي أخلاقي تاريخي داخل المجتمع الشعبي. ومن خلال دراسته للقصة الشعبية تمكن الناقد عبد الله ركيبي من التمييز بين ثلاثة أنواع من القصة الشعبية.

النوع الأول:

ما يندرج في إطار السيرة الشعبية أو قصص البطولات العربية مثل (سيرة عنتر بن شداد) و(سيرة الهلاليين) و(سيف بن ذي يزن) و(الزناتي خليفة) و(الجزايرة وذياب الهلالي) وغيرها. " وهذا النوع من قصص البطولات انتشر في الجزائر منذ الفتح العربي بواسطة الفاتحين الأوائل عن طريق القوافل التجارية أو بواسطة الكتب التي تُعنى بالتاريخ الإسلامي والبطولات العربية" (4).

وقد مثل خط الدفاع الذاتي رواه (المداحون) و(الرواة)، يشتد أكثر في فترات الصراع مع الاستعمار، وقد حافظ هذا النوع من القصص على روح المقاومة وعلى اللغة العربية ولو في لهجتها الشعبية المتفاحصة.

النوع الثاني:

ما يدور حول الدين أو الخرافة أو السحر أو الحيوان ونقد المجتمع " ومن خلالها نتبين طموح الإنسان إلى مراقبة واقعه وإخضاعه للملاحظة، ومحاولة توجيهه، وإيجاد حلول مبنية ولو على تصورات عقائدية قائمة على الخيال" (5).

وهذه القصص " بعضها له جذور في الحكاية الشعبية العربية مثل(ألف ليلة وليلة)، ومغازي (الإمام علي) وملاحمه" (6)، ويبرز دور الرواة الذين يختلفون في طرائق التعبير حيث " تختلف هذه القصص في تفاصيلها من منطقة إلى أخرى" (7)، مع إمكانية التعديل في بنائها من خلال الاحتفاظ ببعض عناصرها المكونة، وإسقاط بعضها، وإعادة ترتيب بعضها الآخر، وبعض هذه التعديلات ذو طابع شكلي صرف مثل المقاطع الشعرية التي تأتي في معرض الاستشهاد، والتفاصيل ذات الطابع الإخباري.

النوع الثالث:

هو الذي ارتبطت أحداثه بالقصص الشعبية مما " ألفه بعض الجزائريين ويمكن إدخاله في إطار القصة الشعبية نظرا للأسلوب الذي كُتبت به ونظرا لأحداثه" (8)، التي تكشف عن أنماط السلوك الشعبي وطرائق تعبير الإنسان في بيئته. " وكثيرا ما يتصرف الراوي في ما يُنقل من أحداث فيقدم أحداثا ويؤخر أخرى ويستحضر منها ما فات ويستشرف منها ما لم يقع، ولهذا فهي ترد على أشكال مختلفة من الأنظمة من قبيل النظام القائم على التدرج في نقل الأحداث والنظام القائم على التوازي المائل في ما يمكن أن يظهر من تشابه بين بعض المقاطع القصصية التي تدور فيها الأحداث" (9). وهناك من التعديلات ما يتعلق بالمحتوى، مثل إضافة اعتقاد محلي شائع يأتي في معرض تفسير حادثة تاريخية أو ظاهرة ما.

ثالثا: نقد القصة الشعبية عند الناقد عبد الله ركيبي

تمثل (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) (10) لمحمد بن إبراهيم مصطفى (11) أهم النماذج الجزائرية في القصص الشعبي، حيث تعتبر من كنوز التراث الجزائري التي تم إمطة النسيان عنها دراسة ونقدا وتقييما من طرف الناقد عبد الله ركيبي. ومن البداية انطلق في محاولة وضعها في إطارها الصحيح من ناحية النوع الأدبي،

والسبب الذي جعل الناقد كما قال يبادر في دراسته لقصة (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) إلى هذا التحديد ما لاحظته من اضطراب لدى الدارسين آنذاك في تصنيفها ضمن شكلها الأدبي فاعتبرها " قصة فنية فيها الكثير من الخيال الموجود في ألف ليلة وليلة ومن صباغة ليلي والمجنون"(12).

و شاء لهذه الفرضية أن تتأكد بما قدمه من تبريرات منها أن صياغتها أطمح إلى النضج الفني لولا شعبية ملامحها، وأما حظها من الدرامية فإنه يفوق بعض " ما كتب بعدها بقرن وزيادة وحتى بعض ما كتب في السبعينيات من القرن العشرين"(13).

أما كيفية توصل الناقد عبد الله ركيبي إلى إدراجها في مجال القصة الشعبية ، فقد انطلق في هذا التحديد من الآتي:

1- من المحتوى حيث لاحظ تقارب النسيج الدرامي بينها وبين ألف ليلة وليلة "لأن فيها بعضا من نماذجها"(14).

2- من العنوان الذي هو مستمد من التراث العربي القديم، و"يدل العنوان على الشخصيات أو الأماكن أو البرنامج السردي، فهو يختصر سلفا المغامرة"(15).

3- مفهوم الشخصية ورسمها وإعطاءها الأبعاد الفنية الكفيلة بكشف عالمها وتناقضاتها ونوازعها، يدخل أيضا في هذا المجال.

4- من دور الشعر في القصة الشعبية " وهي خاصية معروفة في القصة الشعبية تتمثل في الاستشهاد بالشعر، إما للإفصاح عن العواطف أو المشاعر أو لتأكيد الغرض وقد جاء شعر القصة عاميا بسيطا"(16).

5- ظاهرة التكرار مثل تكرار بعض الكلمات والجمل والعبارات التي هي أقرب إلى أسلوب الحكواتية في مجالس السمر.

6- إسناد الحديث إلى راوي يطلق عليه صاحب الحديث على عادة القصص الشعبي

7- ضعف تقنية التسلسل حيث يظهر القفز من حادثة إلى أخرى، ومن فكرة إلى أخرى دون سابق إنذار.

8- العفوية والتلقائية التي تتجلى في لا منطقية السرد، والربط بين الأحداث.

رابعا: منهجه في نقد القصة الشعبية:

عابن الناقد عبد الله ركيبي نص القصة الشعبية وحاول إبراز أهم جوانبها والتي تتمثل فيما يلي:

1- نسيج الشخصيات:

الشخصيات هي قوام العمل القصصي والمحور الذي يحرك أحداث القصة وطبيعة تأثير الشخصية في الحدث هو ما يعول عليه في الحكم على هذه الشخصية بالنضج أو عدمه، واستقر في الذهن أن الشخصية في الأدب الشعبي شخصية بسيطة ساذجة تستجيب لبساطة وساذجة الواقع الشعبي ، ولم تشذ عن هذه القاعدة شخصيات (حكاية

العشاق في الحب والاشتياق لمصطفى بن إبراهيم) " فالشخصيات على تنوعها تبدو نمطية نموذجية في تصويرها لأن الكاتب لا يعنى بتحليل أعماقها وإنما يعنى بوصف المظاهر والسمات العامة لها" (17).

وليس من المنطقي أن نحمل شخصيات النص الشعبي ما تحتمله شخصيات النص الأدبي الفني لخصوصية الفنون الشعبية التي تركز على المفهوم البسيط للحياة وما حولها من أشياء، "فهي شخصيات مسطحة دون عمق نفسي ولا يكاد وصفها الموجز يتجاوز الأوصاف النمطية، فهي مجرد قائمة بأدوار محددة ضمن الحكمة" (18)، وهذه البساطة هي نفسها من مقتضيات واقع يأبى التعقيد والتركيب لانعدام منظومة فكرية متكاملة ومتجانسة فلا غرو إذن كما يقول الناقد عبد الله ركيبي أن " نجد المؤلف ينظر إليها تلك النظرة المثالية التجريدية التي تفصل بين الخير والشر في خط مستقيم وتجعل الأشخاص إما أختيارا فقط أو أشرارا فقط، فبطل القصة ابن الملك وبطلتها زهرة الأوس يمثلان جانب الخير بينما يمثل البربري والعجوز جانب الشر في هذه القصة ... لكن في الأخير ينتصر الخير، وهذا في الغالب الأعم هو نهاية القصة الشعبية التي تتجه هذا الاتجاه وتسير على هذا النمط" (19).

وترتبط دراسة الشخصيات عند الناقد دائما بالحوار، ومن المؤكد أن الحوار وسيلة اتصال ضرورية بين الشخصيات فيعكس واقعها وينم عن جوهرها وتأخذ الأحداث في النمو فيتشكل البناء العام للقصة، وإن كان الحوار في الحكاية كما قال: "لا يأتي للتعبير عن تفكير الشخصية وأعماقها وإنما لمجرد التفاهم أو وصف الإحساس في لغة مباشرة في كثير من الأحيان" (20).

1- البناء اللغوي والطاقات التعبيرية :

رکز الناقد عبد الله ركيبي على الجانب اللغوي التعبيري "بوصفه محادثة، بخصائصه كالمعجم العامي والتكرار والصمت والحذف التركيبي الظاهر" (21). ورأى أن لغة القصة عامية تقترب أحيانا من التعبيرات الفصيحة، حيث لا تراعى فيها القواعد والرسم الإملائي وقد ردها الناقد إلى ضعف ثقافة المؤلف ووضعية ثقافة الكتابة والتحرير في عصره. وقد ضرب لذلك عدة أمثلة من الحكاية في مثل قوله " قام ابن الملك وضمها إلى صدره وتعانقا جميعا وغشي عليهم من شدة العشق والغرام وهم متعانقين كأنهم غزلان متخبلين" (22).

2- السرد المؤطر والبناء الفني:

أكد الناقد عبد الله ركيبي أن البناء الفني هو إحكام لعلاقات نسيج النص القصصي الذي تتقاطع فيه عناصر كثيرة منها ما يرتبط بالشكل ومنها ما يتعلق بالمضمون، وحين تلتمح هذه بتلك تتحقق اللحمة الفنية القادرة على أداء دور التواصل بين أطراف العملية الإبداعية المشكلة من القارئ، النص، المؤلف " ولما كان المؤلف لا يهتم بالبناء الفني لهذه القصة جريا على عادة رواة القصة الشعبية حين ينتقلون من موقف إلى آخر بقصد التشويق أو بغرض تقديم معلومات أو معارف خارج الموضوع أو

الاستطراد الذي يهدف إلى التطويل وهذا ما فعله الكاتب حين أطنب في وصف الحب وألوانه ... مما ينقلنا إلى مجال آخر بعيد عن سياق الحدث والسرد" (23).

وإن كانت بعض هذه التقنيات مستعملة اليوم في التأطير السردية، حيث يمكن للروائي أن يستغلها بتقنن لدفع الملل وإبعاد السأم عن القارئ الذي تتجدد فيه القدرة على مواصلة اكتشاف حثيات النص وتفاصيله بعد أن يكون قد تمكن من استرجاع أنفاسه وهو ما عرفه المصطلح السردية بـ (التوقف) Pause: "من خلال التوقف الحاصل من جراء المرور بين سرد الأحداث إلى الوصف" (24).

وبعد استقصاء تفاصيل الحكاية الشعبية يخلص الناقد عبد الله ركيبي إلى اعتبار أن الفن القصصي في حكاية "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" يتميز ببساطة وسائله التي غالبا ما كانت تقرر حقائق اجتماعية، وتصرح بوقائع ذات صلة بحياة الإنسان الجزائري في ظل المتغيرات التاريخية التي تسير في اتجاه تعرية التاريخ وإسقاط الألقعة، وهو ما يفتح السبيل لمستوى آخر، وهو مستوى الرسالة المبنوثة أو المعنى العميق، والذي يؤدي بنا بدوره إلى استخراج العلاقات المفترضة فيما بين الحكايات نفسها، وكذلك ما بينها والمجتمع الذي تولدت فيه" (25).

ويدخل هذا في سياق خدمة الأهداف الاجتماعية في إطارها التربوي قصد معالجة الانحرافات، وتقويم السلوك العام والإحالة على الحلول المناسبة في أسلوب وعظي إرشادي يلتقي بالأشكال الخطابية التقليدية في مجال السياسة والاجتماع. وهذا النص لم يكتب، في الأغلب الأعم، بنية فنية خالصة، ولا للمتعة الملازمة له، ولكن بوصفه غرضا أو كتابة غرضية أهميتها في منطوق جدواها وليس في جمالياتها، لأنها تفصح عن مستوى من التجارب والفعل الإنساني في حدوده البيئية.

الخاتمة

انطلق الدكتور عبد الله ركيبي من الحاجة لتوثيق الحكايات الشعبية الجزائرية ودراستها، خاصة وأن الجزائر غنية بتراتها القولي/الشفوي، من حكايات شعبية وغيرها، فضلا عن المكونات الأخرى للتراث الشعبي، خاصة وأن ما تم جمعه وتدوينه حتى الآن منها يعد يسيرا جدا.

ومعلوم أن توثيق التراث الشعبي، والحكاية الشعبية في الأساس منها، ليس غاية بذاته، لذا نجد أن عملية التوثيق مرتبطة شديدة الارتباط، بدراسة هذا التراث، ومن هنا فإن تحديد الحاجة لتوثيق التراث الشعبي، تحديدا في الآن ذاته لحاجة دراسته، وتتمثل هذه الحاجة فيما يلي :

- الإسهام في دراسة تاريخ الثقافة والحياة الاجتماعية، من حيث إعادة ترتيب الفترات التاريخية الغابرة، التي لا يوجد عنها إلا شواهد ضئيلة متفرقة، وهو ما يُعرف باسم منهج إعادة البناء التاريخي.

- تقدم دراسة الفولكلور بما فيها الحكاية الشعبية، خدمة مباشرة في عملية التغيير الثقافي: عواملها، وسرعتها، واتجاهاتها... الخ، وهي أمور هامة لدارس تاريخ الثقافة، وعالم الاجتماع، القائم على رسم سياسة التخطيط بمستوياتها المختلفة .
- تساعد على تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات المختلفة، وهي العملية المعروفة في الأنثروبولوجيا الثقافية باسم " التثقاف " .
- يقدم التراث الشعبي مادة غنية للأدباء، من شعراء، وقصاصين، وروائيين، على وجه التحديد، من خلال تمثلها في نتاجاتهم الإبداعية والاشتغال عليها، وفي أدبنا الجزائري والعربي شواهد عدة على ذلك.

هوامش المادّة العلمية:

1. عبد الحميد بورايو: في الثقافة الشعبية الجزائرية – التاريخ والقضايا والتجليات – منشورات رابطة الأدب الشعبي لإتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، سنة 2006، ص08.
2. الأخوان غريم: Jacob Grimm يعقوب غريم (1785-1863) و Grimm Wilhelm فيلهلم غريم(1786-1859) قاما بتجميع العديد من القصص الشعبية الألمانية وتخريجها في كتاب (حكايات للأطفال)، وقد منحتها جامعة ماربورغ Marburg في ألمانيا الدكتوراه الفخرية سنة 1819 لأبحاثهما اللغوية، والتاريخية، والتراثية.
3. عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري- دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر-، دار القصة للنشر، الجزائر، سنة 2007، ص185.
4. عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للكتاب (تونس، ليبيا) والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط02، سنة 1983، ص 120.
5. المرجع نفسه، ص،ن.
6. عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، ص186.
7. المرجع نفسه ، ص123.
8. المرجع نفسه ، ص127.
9. محمد القاضي :معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، ط1، سنة 2010، ص148.
10. عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري ، ص127.
11. كتبت هذه الحكاية سنة 1849 ، وقام الدكتور أبو القاسم سعد بنشرها وتحقيقتها سنة 1977، وقدم تعريفا لها في مجلة الثقافة الجزائرية العدد 01 السنة الأولى، مارس 1977، ص26.
12. مصطفى بن إبراهيم: أو الأمير مصطفى (1806-1886) ولد الأمير بالجزائر العاصمة ، حيث كان جده مصطفى باشا دايًا على الجزائر من سنة 1795 إلى سنة 1805، وكان والده أيضا من الذين لعبوا أدوارا بارزة في مواجهة الاحتلال الفرنسي، وقد تعرض مؤلف هذه الحكاية إلى محنة في المحيط العائلي بوفاة أبيه وهجرة أخويه ومصادرة أملاكه من طرف الاحتلال، وبحثا عن السلوى أغرق نفسه في دوامة السكر والغرام وكتب هذه

- الحكاية تعبيراً عن حاله.
13. عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث، ص119.
 14. المرجع نفسه ، ص، ن.
 15. لطيف زيتون: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، بيروت، سنة 2002، ص125.
 16. عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث، ص127.
 17. المرجع نفسه ، ص، ن.
 18. محمد القاضي : معجم السرديات، ص152.
 19. عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث، ص127.
 20. المرجع نفسه ، ص126.
 21. محمد القاضي : معجم السرديات، ص158.
 22. عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث، ص127.
 23. المرجع نفسه ، ص129.
 24. المرجع نفسه ، ص، ن.
 25. المرجع نفسه ، ص129.
 26. سمير المرزوقي وجميل شاكرا: مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1985، ص90.
 27. عبد الحميد بورايو: الحكاية الخرافية للمغرب العربي، دار الطليعة، بيروت، ط01، سنة 1992، ص15.